www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

الإمام أبو القاسم الزمخشري

صاحب الكشّاف

النحوي الزمخشري، في شبابه بحجة الإسلام الغزالي، في كهولته، فكانت بين الإمامين المعاصرين مواقفات ومفارقات.

بقلم: محمد بن أحمد بن عمر الشاطري

■ حين نقرأ حوادث القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين) نجد فيهما ما نجده في ذلك العصر الذي عرف بانحلال الامبراطورية العباسية ، الى دول متعددة ومنيت فيه البلاد العربية الاسلامية بتخلف في المجتمع ، واضطراب في حبل الامن ، وفساد في صميم الحكم ، وحروب داخلية ، وجانبية آخذ بعضها برقاب بعض ، ولكن شيئا واحدا اذ ذاك نجد فيه شيئا من الهناء والعزاء عن تلك الكبوات، والنكبات ، ذلك هو النهضة العلمية الكبرى بين رجال العلم والثقافة من ابناء ذلك العصر ، ممن انتج والف في مختلف العلوم ، من عقائد ،وشريعة وادب ، وفلسفة ، وطب ، وهندسة ، وطبيعة ، وتصوف وغيرها ، كالغزالي ، وابي القاسم القشيري وامام الحرمين،وابي اسحاق الشيرازي، وابن الصباغ ، والزمخشري (الذي سنعيش معه هذه اللحظات) وغيرهم ممن اصبحت المكتبات العربية الاسلامية غنية بتراثهم العلمي والثقافي الخالد الذي تباهي به المكتبات الاجنبية الاخرى من شرقية ، وغربية ، وكأنهم ارادوا ان يعوضوا امتهم عما فاتها ابان غفوتها من التقدم ، والوحدة، والاصلاح العام ، بما يقدمونه لها من انتاجهم العظيم لتسترشد بـه في حاضرها ، ومستقبلها ، الى جانب ما كانوا يقومون به في حياتهم ـ رحمهم الله ـ من رحلات وتنقلات في الاقاليم العربيـة والاسلامية ـ شموسا مشرقة ـ لالقاء الدروس ، ومبادلة البحوث ، وللمحاضرات وللمناظرات التي اصبحت عندهم فنّا له نظامه وقواعده، وشروطه، وكثيرا مـا يحتل بسببها المنـاظر الغالب كرسي الصدارة ، والزعامة بين اقرانه ، وزملائه .

نسب الزمخشري ومولده

هو ابو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري ، وفي غمرة ذلك العصر الذي اشرت اليه في شهر رجب سنة ٤٦٧ هـ ١٠٧٥ م ولد هذا الامام العظيم في زمخشر ـ بسكون الخاء ، وفتح ما قبلها والشين التي بعدها ـ وهي قرية من قرى خوارزم ، البلاد الواسعة الشهيرة التي انجبت كثيرا من كبار العلماء والكتاب ، والساسة في ذلك العهد ، من العرب والفرس ، وغيرهم ، وتقع على نهر آمودريا من جمهورية تركستان التي اصبحت في عـداد الجمهوريات السوفيتية اليوم .

ومن طريف ما يروى الزمخشري عن ابيه ان اعرابيا اجتاز بقريته فسأل عن اسمها ، فقيل له زمخشر، فقال لا خير في شر ورد ، ولم يلمم بها،

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

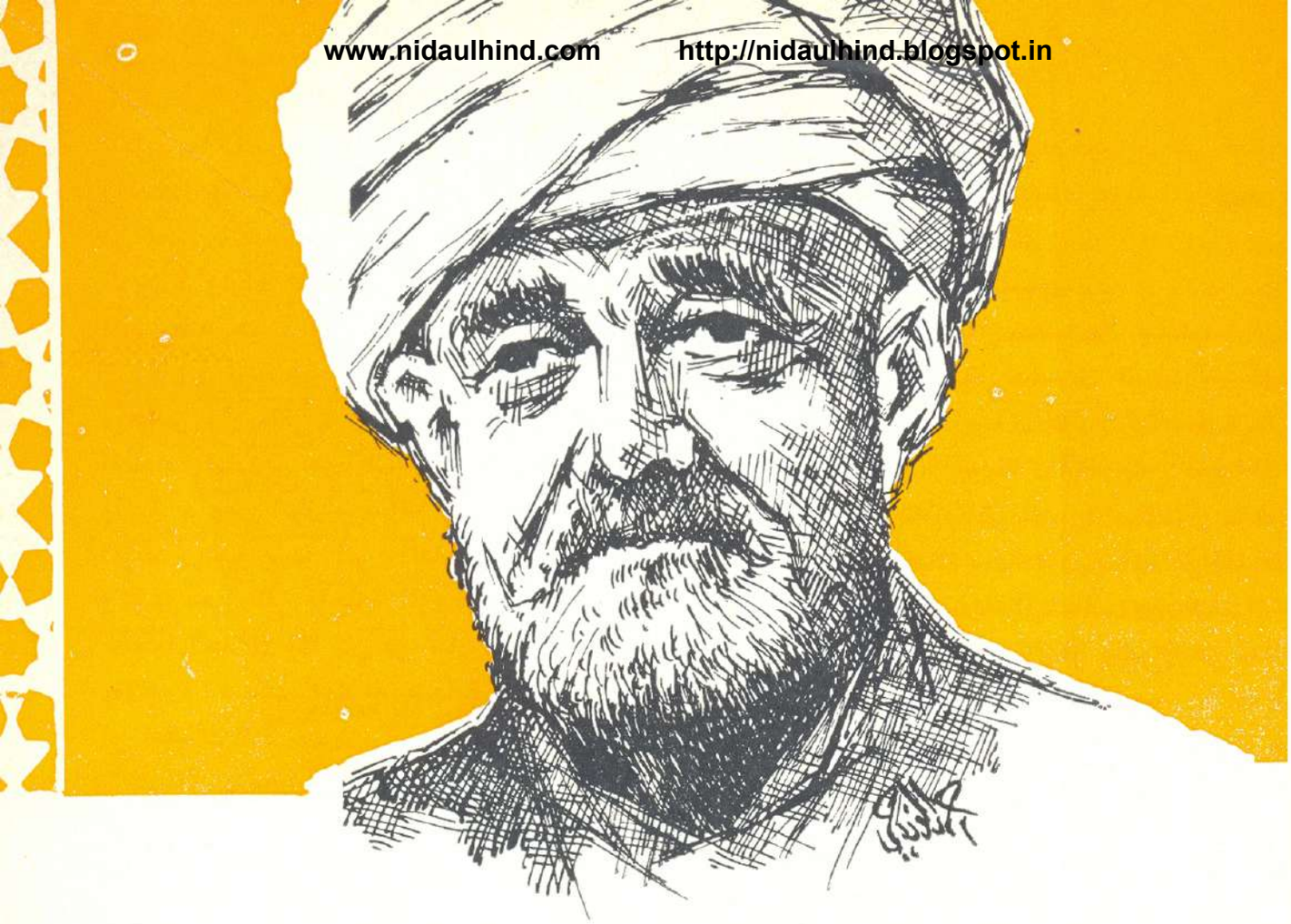

والكلمة ، وان كانت في الاصل غير عربية ، فسرها الاعرابى بلغته العربية من كلمتى زمخ ، وشر .

نشأة الزمخشرى ، واستعماله رجلا صناعية

وقد نشأ الزمخشرى طالبا مجدا في خوارزم متنقلا بين شيوخها، وعلمائها ، وفي بخارى الشهيرة بمحدثيها ومفسريها .

وكان في صباه لا يخلو عن العرامة التى تعترى بعض الاطفال الاذكياء حتى كانت سببا في دعاء والدته عليه بفقدان رجله ، كما يروى ، ولنتركه رضي الله عنه يتحدث الى الامام الحنفى الدامغانى لما سأله عن سبب قطع رجله ، وقد اجتمع به في بغداد في اثناء رحلة الزمخشرى اليها ، قال سببا قطعها دعاء الوالدة ، وذلك انى كنت في صباى امسكت عصفورا، وربطته بخيط في رجله، فافلت من يدى ، فأدركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط ، فتألمت والدتى لذلك، وقالت قطع الله رجلك كما قطعت رجله ، فلما وصلت سن الطلب رحلت الى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت رجلى ، وعملت لى عملية اوجبت قطعها . ويقول العلامة ابن خلكان، في وفيات الاعيان ، انه سمع من بعض المشايخ ان احدى رجليه كانت ساقطة ، وانه كان يمشي في جارون خشب (آلة قديمة من الخشب) ويعلل سبب سقوطها بثلج كثير ، وبرد شديد في بعض اسفاره بخوارزم اسقط منه رجله ، وكان بيده محضر فيه شهادة خلق كثير ممن اطلعوا على حقيقة ذلك خوفا من ان يظن من لا يعرف الحقيقة انها قطعت لريبة ، ثم قال : والثلج والبرد كثيرا ما يؤثران في الاطراف في البلاد الباردة فتسقط ، خصوصا في خوارزم، فانها في غاية البرودة ، ولقد شاهدت اناسا كثيرين ممن سقطت اطرافهم بهذا السبب ؛ فلا يستبعده من لا يعرفه .

ولكن ابن خلكان سرد الرواية الاولى ايضا قبل هذه الاخيرة، وعقبهما بقوله ، والله اعلم بالصحة، ولم يتعرض لتصحيح احداهما او ترجيحها ، ولم يحاول الجمع بينهما ، مع انهما متقاربتان ، ومن المحتمل ان يكون قد اثر الثلج على رجله بعد سقوطه عن الدابة ، وذلك لاستعدادها للتأثر بالثلج والبرد اكثر بعد الكسر لضعفها ، ومهما يكن فمن المحقق ان فقدان رجله لم يكن لريبة ـ رحمه الله تعالى ـ .

رحلاته وتلاميذه

قام الزمخشرى برحلات عديدة منذ عنفوان شبابه

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

تنقل فيها ما بين مدن خوارزم، وبخارى ،والعراق والحجاز لطلب العلوم ، ونشرها ، وللقاءات اقرانه من فحول العلماء والادباء وجاور بمكة المكرمة زمنا طويلا ، ولهذا لقب ـ جار الله ـ ثم عاد اخيرا الى وطنه حيث توفي بها .

وكان في اثناء هذه الرحلات ، يدرس ، ويؤلف، ويحاضر ، ويناظر ، وتشد اليه الرحال ، ويجيز العلماء البارزين من طلبته المديدين ، رجالا ، ونساء ، ومن ابرز مريداته ، العالمة الحافظة ام المؤيد زينب بنت ابى القاسم النيسابورى ، وكانت ممن ظفر باجازة الزمخشرى التى قل أن يمنحها لاحد الا اذا كان من كبار العلماء المؤهلين ، والاجازة عندهم بمنزلة شهادة التفوق اليوم او اعظم .

علومه ومصنفاته

كان متخصصا في العلوم الشرعية ، وآلاتها ، ومتفوقا في العلوم العقلية والادبية ، قال عنه ابن خلكان في وفيات الاعيان (كان امام عصره غير مدافع ، تشد اليه الرحال في فنونه) .

وبالاطلاع على مؤلفاته تتجلى غزارة علمه ، ودقة بحثه ، واتساع افقه ، وحصافة عقله وبلاغة اسلوبه ، فله انتاج من الكتب،والمراسلات، والاجازات ، والاشعار .

الكشاف

واول مصنفاته واشهرها الكشاف في تفسير القرآن الكريم ، وهو اكثر التفاسير عناية بدقائق معانى اللغة العربية ، وبيان اعجاز القرآن ، في اسلوبه العربى الرائع ، وكان يسلك مسلك البحاثة الذى يستثير ذهن القارىء ، وارشاده ، وتنبيهه الى نقاط البحث ، والاشكال ، ثم يجيب عنها بدقة وايضاح ، وقد دعم فيه حجج المعتزلة الذين يعد امامهم في عصره ، ويجاهر بعقائدهم في كل مناسبة ، وهم الطائفة التى تغلب جانب العقل ، وتعمل على تأويل ما لا يوافقهم من النقل ، بينما يغلب الظاهرية جانب النقل ، في حين يعرف الاشعرية بعملية التوفيق بين العقل والنقل على السواء ، مما يجده القارىء المؤهل مفصلا في الكتب المختصة بعلوم العقائد ، والتشريع .

استفتح الزمخشرى كشافه بقوله « الحمد لله الذى خلق القرآن » فأخبر بان في هذا دعاية ضد انتشاره . فأبدلها بقوله « الحمد لله الذى جعل القرآن » وجعل في اصطلاحهم بمعنى خلق ، وابدلها بعض النساخ ، بعده بقوله « الحمد لله الذى انزل القرآن » .

وفيه يقول هذين البيتين :

ان التفاسير في الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمرى مثل كشافي
ان كنت تبغى الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

وقد صنف الامام ناصر الدين الاسكندرى ـ قاضي الاسكندرية ـ كتابا سماه ،الانتصاف من الكشاف، اوضح فيه ما تضمنه الكشاف من الاعتزال ، وناقشه باسلوب جيد ، وهو مطبوع على هامش الكشاف ، كما ناقشه آخرون .

ومن اشهر مصنفاته المفصل في النحو ، وقد خدم هذا الكتاب شروح كثيرة وفيه يقول بعضهم :

مفصل جار الله في الحسن آية
والفاظه فيه كدر مفصل
ولولا التقى قلت المفصل معجز
كأى طوال من طوال المفصل

وله مصنفات كثيرة لا يتسع المقام للكلام عنها كلها ، منها ، الفائق في تفسير الحديث ، ورءوس المسائل في الفقه ، والمستقصي في امثال العرب ، وشافي العى من كلام الشافعى ، والقسطاس في العروض ، واساس البلاغة ، وديوان شعر ، والرسائل ، ومعجم الحدود ، وغيرها مما يعد بالعشرات .

بين الزمخشرى والغزالى

وقد التقى الزمخشرى ، وهو في شبابه بحجة الاسلام أبى حامد الغزالى ، وهو في كهولته ،وبين الامامين المتعاصرين موافقات ، ومفارقات ، فمن الموافقات بين الاثنين ، اتساع كل منهما في العلوم العقلية ، والنقلية ، وفي وفرة المصنفات ، وكثرة الطلبة ، ومتانة الخلق ، وعزة النفس ، والزهد في الدنيا ، ورجاحة العقل ، ونزاهة القصد ، والخبرة بحالة مجتمعهما الاسلامى ، وفي كثرة الرحلات ، والعودة في النهاية الى الوطن ، وفي غير ذلك من الخلال الحميدة التى تتوافر في اعلام العالم الاسلامى. ولعل النقطة البارزة في المفارقات بينهما هى نقطة اختلافهما في العقيدة ، ففى حجة الاسلام الغزالى تتمثل آراء وعقائد اهل السنة والجماعة ، او الاشعرية منهم ، وفي الامام

www.nidaulhind.com http://nidaulhind.blogspot.in

الزمخشري ، تتمثل آراء وعقائد المعتزلة ، وكل منهما زعيم من زعماء طائفته ، وقد دارت بين الاثنين مناظرة من نوع المناظرات المألوفة بين كبار العلماء في ذلك العصر ، ولم اجد في كتب التراجم المعنية التي بين ايدينا تفصيلا لتلك المناظرة ، ولكن يستفاد من بعض كتب التوحيد والعقائد ان من المواد التي وضعت على بساط البحث والمناظرة بينهما رؤية الله في الآخرة ، فالغزالي كعالم سني يقول بجوازها عقلا بلا كيف، بينما الزمخشري كعالم معتزلي يقول باستحالتها عقلا ، وهكذا دار النقاش والجدل بينهما ، كما تناولها من سبقهما من اعلام الطائفتين حتى خاطب الغزالي زميله بالابيات الشهيرة التي يقول فيها :

ايها السامع عني ما اقول
قصّر القول فذا شرحٌ يطول
ثمّ سرٌّ غامض من دونه
قصرت والله اعناق الفحول
أنت لا تعرف ايّاك ولم
تدر من انت ؟ ولا كيف الوصول

وقال بعضهم انه سأله عن معنى قوله تعالى « الرحمن على العرش استوى » فأجابه بما فيه تقديس لله ثم بالابيات المشار اليها .

ويحدثني بعض الشيوخ الحضارمة بان الزمخشري سئل بعد هذه المناظرة عن انطباعاته عن الغزالي فقال انه طويلب علم ، وهذه الجملة من الزمخشري ـ اذا صحت ـ لايمكن قبولها على علاتها، ولا بد من حتمية التأويل لها فالزمخشري متبحر في علم الكلام بينما يقول المازري المغربي ان الغزالي ليس متبحرا في علم الكلام ، ووافقه ابن السبكي في طبقات الشافعية بقوله (فأنا اوافقه على ذلك، لكن اقول ان قدمه فيه راسخ ، ولكن لا بالنسبة الى قدمه في بقية علومه هذا ظني) فالمناظرة اما ان تكون قد جرت في هذه المادة وحدها ، او مع مواد من علم البلاغة التي يعد الزمخشري فارسها المجلي، ثم انجلت عن تلك الانطباعة من الزمخشري، والا فابو حامد الغزالي متفوق على زميله في علوم اخرى لا يشق له فيها غبار، كالفلسفة، والتصوف، والفقه ولكل من الامامين ميزاته ، كما يعرف ذلك من دراسة حياتهما ، وكتبهما ، ومهما يكن فلا يلزم من كلمة الزمخشري في الغزالي الغض من قدره، او الحط من كرامته ، بل ربما كان التصغير فيها للتعظيم على حد قول الشاعر العربي :

دويهية تصفر منها الانامل

هل رجع الزمخشري عن عقيدته

يقول بعض المؤرخين ان الزمخشري رجع عن عقائد المعتزلة في آخر عمره ، واوصى بان تكتب على قبره هذه الابيات :

يا من يرى مد البعوض جناحها
في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى عروق نياطها في نحرها
والمخ في تلك العظام النحّل
أغفر لعبد تاب من فرطاته
ما كان منه في الزمان الاول

شعر الزمخشري

للزمخشري اشعار تدل على حسن الذوق ، ولطف الاسلوب ، ومراعاة البديع ، وجودة المعنى منها قوله في الغزل :

مليح ولكن عنده كل جفوة
ولم ار في الدنيا صفاء بلا كدر
ولم انس اذ غازلته قرب روضة
الى جنب حوض فيه للماء منحدر
وقلت له جئني بورد وانما
اردت به ورد الخدود وما شعر
فقال انتظرني رجع طرف أجيء به
فقلت له هيهات مالي منتظر
فقال ولا ورد سوى الخد حاضر
فقلت له اني قنعت بما حضر

ومن شعره في الرثاء قوله في رثاء شيخه ابي مضر:

وقائلة ما هذه الدرر التي
تساقط من عينيك سمطين سمّطين
فقلت هو الدر الذي كان قد حشا
ابو مضر اذني تساقط من عيني

وهكذا نجد الامام الزمخشري ـ كأضرابه من كبار الائمة ـ يجمعون بين الفن في الشعر الى الاستقامة في الخلق ، نفع الله بهم .

وفاته

توفي الزمخشري في في ليلة عرفة ذي الحجة سنة ٥٣٨ هـ (١١٤٤ م) رحمه الله تعالى وابقى ذكره في الخالدين . ■■

محمد بن احمد بن عمر الشاطري
جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية